نورمان
فنكلستين

أوسلو:
المرحلة الأخيرة من الغزو *

ترجمة: أيمن حنّا حدّاد وسماح ادريس

اتّخذ التوسعُ الأوروبي في العصر الحديث شكلَيْن أساساً: الاستعمار colonization والغزو conquest. ويقتضي الاستعمارُ استغلالَ المصادر المادية والبشرية للعالم غير الأوروبيّ، وأما الغزو فيقتضي اكتسابَ منطقةٍ كانت في الأصل قد احتُلّتْ بهدف الاستيطان. ومن الممكن أن يكون الاستعمارُ بوحشيّةِ الغزو ودمويّته تماماً. فلننظرْ إلى مثالٍ متداولٍ في أخبار اليوم: وهو أنّ إي. دِي. موريل Morel[1]، وهو أهمُّ خبراء بدايات القرن العشرين في موضوع الكونغو، قدّر أنّ عشرة ملايين من سكّان الكونغو على الأقلّ هلكوا أثناء استغلال بلجيكا لمصادر المطّاط والعاج في مستعمرتها الأفريقية هذه بين عامَيْ ١٨٩١ و ١٩١١. وبمقدور المرء أن يلاحظ، بين هلالَيْن، أنّ هذا الرقم غير العادي نادراً ما يُذكر (إنْ كان له أن يُذْكَرَ على الإطلاق) في الأدبيات الأكاديمية عن الكونغو. بل إنّ باستطاعة مؤرِّخ موثوق مثل إيريك هوبْسباوم Hobsbawn أن يكتب أنّ «الفظاعات التي ارتُكِبتْ في الكونغو» قد كانت «معتدلة في حجمها» قياساً إلى «المعايير العصرية» التي تقدِّر التقلي بـ «الملايين».

نماذج الغزو

غير أنني أريد هنا أن أركِّز على نماذج الغزو. فهو يتضمّن، إجمالاً، أربعة عناصر: الإبادة، والطَّرد، والتطويق، والاستعباد extermination, expulsion, encirclement, and enslavement. فلْنتأمّلْ مثالين كلاسيكيين للغزو: الغزو الأميركي الناجح للغرب [الأميركي]، والصورة المرآوية لهذا الغزو، وهو الغزو النازيُّ المُخْفِق للشرق. ففي المثال الأميركي الأشهر، تمازجتِ الإبادةُ بالطَّرد، وكان التطويقُ هو الطورَ الذي تُوِّج فيه، وذلك بتأسيس المستوطنات reservations. ولم يَبْرزِ استعبادُ السكّان الأصليين [الهنود الأميركيين] إلاّ بشقّ النفس، إذ كان قد تُوُصِّلَ مبكّراً إلى إجماعٍ على استيراد الأفارقة بدلاً من استغلال أولئك السكّان[2].

أما النازيّون، فحين تصوّروا أنّ ثلاثة أرباع السلافيين سَيُقتلون أو يُطردون إلى سيبيريا، صاغوا بوضوحٍ حَمْلَتَهم لتحقيق «المجال الحيوي» Lebensraum بناءً على السابقة الأميركية. فأعطى هتلر تعليمات لِهِمْلر عام ١٩٣٩ بـ«نقل» السكّان الأصليين من الشرق المحتلّ، وبخلق مستوطناتٍ ألمانيةٍ جديدةٍ عبر تَحْصيص الأراضي والممتلكات الأخرى التابعة للبولنديين واليهود على «أشخاص من العِرْق الألماني أو الجنسية الألمانية من العائدين من الخارج [إلى ألمانيا]». وطالب هِمْلر، استتباعاً لمبادرة هتلر، بتقسيم بولندا إلى «أكبر عددٍ ممكن من القطع والشظايا». أما مَنْ تبقى من السكّان البولنديين «فسيُختزَلون بالضرورة إلى بقايا كائناتٍ دونيّة... قادرةٍ على تزويد ألمانيا سنوياً بعمّال غير منتظمين، علاوةً على تزويدها إيّاها بالطاقة البشرية المطلوبة للمشاريع الخاصة». وسوفَ يحلّ المزارعون ـ الجنودُ الألمانُ المجمَّعون في مستوطناتٍ زراعيّة محلَّ السكّان الأصليين ذوي الطّاقة والقيمة المستنفدتيْن بشدة. ويذكّر هِمْلر بأنّ «الألمان قد كانوا

---

* ـ نصُّ محاضرةٍ القاها الباحثُ الأميركي بمناسبة الذكرى الثلاثين للاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزّة. ويرغب المؤلف في تقديم الشكر الى روان كاري ونعوم تشومسكي لملاحظاتهما النقدية على مسوّدةٍ اولى لهذا النصّ.

١ ـ أي. دي. موريل: **عبءُ الرجل الأسود** (نيويورك، ١٩٩٦)، ص ١٠٩. واريك هوبسباوم: **عصر الامبراطورية** (نيويورك ١٩٨٧)، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

٢ ـ لنقاش حول المثال الأميركي الأصلاني، راجع نورمان فينكِلْستين: **صعود فلسطين وأفولُها** (مينيسوتا، ١٩٩٦)، ص ١٠٤ ـ ١٢١. وعن استخدام العبيد المستورَدين بدلاً من استعباد السكّان الأصليين، راجعْ روبين بلاكبورن Blackburn: **صناعة الاسترقاق في العالم الجديد** (نيويورك، ١٩٩٧)، ص ١٣٢ ـ ١٣٤.

فيما مضى شعباً زراعياً، ومن الضروري أن يعودوا كذلك مـرة أخـرى». وعلى الألمان العـائدين من الخـارج، لكي يواصلوا ضخَّ الأمَّة بدم الحياة، أن يَمدّوا جذوراً عميقةً في وطن أسـلافـهمَ، وأنْ يكسبـوا مناطقَ جديدةً للاسـتيطان. وسيكون للمستوطنات الألمانية المحصَّنة، والمكوَّنة من بلداتٍ صغيرةٍ محاطةٍ بحلقات من القرى الألمانية، أن تحمي «نقاط تقـاطع طرق الاتّصـال الألمانيـة». وبهـذه الرؤية إلى [دور] المزارعين الجنود الألمان، تبـجَّحَ هِمْلر بأنَّ هذا النمـوذج سيكون «أعظم نموذج استعماري عرفه العالمُ على الإطلاق، ويرتبط بأعظم المهام نبلاً وأهميّةً، وهي مـهمةُ حمايةِ العالم الغربي من هيجانٍ آسيويٍّ مّا». فلنتذكّرْ في هذا السياق خطةَ الصهاينة الاستعمارية لفلسطين، وهي خطةٌ تصَوِّر هرتزل أنّها ستكون بمثابة «حائطِ دفاعٍ لأوروبا في مواجهة آسيا»[1].

إنّ الأطروحة التي أريد أن أبرهن عليها ذاتُ جزئين: ١) أنّ الاستيطان الصهيوني لفلسطين يقع ضمن المسار العام للغزو، و٢) أنّ ما يسمّى بالعملية السلمية هو في واقع الأمر المرحلة المتوِّجة للغزو الصهيوني. لكني قبل أن أنصرف إلى الحديثِ عن الاستيطان الصهيوني، أودّ أن أتأمّل باختصارٍ إيديولوجيّة الغزو.

عقائدية <ايديولوجية> الغزو*

لقد برّرتِ الغزوَ ادّعاءاتٌ مشابهةٌ، عبر الزمان والمكان. وكنتُ قد بيَّنتُ في مكانٍ آخر أنّ المكان الذي وقعَ عليه خيارُ الاستيطان قد اعتُبر ـ وعلى نحو نموذجي ـ خالياً من السكّان: وهكذا كان الغربُ الأميركيُّ «أرضاً عذراءَ» أو «يباباً» [أمام المستوطنين]، وأوروبا السلافيةُ «مدًى شرقياً» [للألمان النازيين]، وأفريقيا الجنوبيةُ «بدويّةً رُحّلاً» [للمستوطنين الأوروبيين البيض]، وفلسطينُ «أرضاً بلا شعب» أو لاحقاً «صحراءَ ستُزهِّر» [بحسب الادّعاء الصهيوني][2].

وإتماماً لهذه الأطروحة جاء الادّعاء بأنّ حقوق الإنسان الأساسية لا تنطبق على السّلالات الأدنى التي تشمل السكّان الأصليين. ولاحظ ثيودور روزفلت في سرده العريق للغزو الأميركي [للغرب الأميركي]، وعنوانه: **اكتسابُ الغرب**:

> انّها لأخلاقياتٌ ملتويةٌ وفاسدةٌ وسخيفةٌ تلك التي تحرِّم مسارَ فتحٍ [غزوٍ] قلّب قاراتٍ كاملةً إلى قواعد لأممٍ قويّةٍ ومزدهرةٍ ومتحضِّرة. وعلى كل الرِّجال ذوي الفكر السليم والحكيم أن يَنبذوا ـ وباحتقارٍ نافد الصبر ـ الدعوى التي تقول إنّ على هذه القارات أن تُحفظ لفائدةِ قبائل متوحّشة مشتّتةٍ لم تكن حياتُها إلا بدرجاتٍ فحسب أقلّ معنًى وتشتتاً وتوحّشاً من حياة الوحوش البريّة التي تشترك وإيّاها في ملكية واحدة.

أو كما عبّر روزفلت بإيجازٍ بليغ في مراسلاته الخاصة: «إنْ نحنُ فشلنا في التصرّف تبعاً لنظرية الشعب المتفوّق... سادتِ البربريةُ والوحشيةُ والعراقيل الحقيرة أغلبَ الكرة الأرضية».

أما هتلر فقد رجَّع هذه المشاعر، حين حاضَرَ في جنوده على الجبهة الشرقية عام ١٩٤٤ قائلاً:

> إنّ مفهوم الإنسانية، أو المفهومَ القائل بأنّ من الواجبِ دائماً مساعدةَ الضعيف ودعمَهُ ولو كان ذلك على حساب الوجود المستمرّ للأقوى، غيرُ معروفٍ في الطبيعة... فعلى مرّ التاريخ، أُخضعتِ الشعوبُ الأضعفُ ـ التي لم تُسهم في شيء كما هو واضح ـ، وقُهرتْ، وأُلغِيتْ، بل وأبيدتْ أحياناً، على يد الأمم العظيمة. إنّ مثل هذه المفاهيم [الإنسانية] لا يمكن إلا أن تكون صادرةً عن عقلٍ فاسد [ضالّ]، لرجلٍ توقّف عن التفكير تفكيراً سليماً صافياً.

وأما ونستون تشرشل فحين تحدَّث عام ١٩٣٧ أمام لجنة الحصون البريطانية عام ١٩٣٧ دعماً للاستيطان الصهيوني، قارن بين العرب في فلسطين وكلبٍ في مَعْلَف(...)**.

ثمة ثلاثُ نقاط تستحقّ التأكيد: ١) لم يكن هناك تعارض من وجهة النظر الأوروبية بين الادّعاء بأنّ الأرض لم تكن

---

١ ـ راجعْ كتاب نورمان فينكلستين: **الحقيقة والخيال في صراع إسرائيل وفلسطين** (منشورات فيرسو، ١٩٩٥)، ص ٩٢ ـ ٩٤ لمزيد من المعلومات حول السابقة الهندية ـ الأميركية لسياسة هتلر التوسعية باتجاه خلق «مجال حيوي» لألمانيا. وراجع روبرت جيلاتلي Gellately: **الجستابو والمجتمع الألماني** (أوكسفورد، ١٩٩٠)، ص ٢١٧ ـ ٢١٨، للاطلاع على مخططات هتلر وهملر لأوروبا الشرقيّة، ومقال هانس أدولف في كتابٍ حرّره هلموت كراوسنيك وغيره وعنوانه: **تحليل دولة البوليس السرّي الألماني** (نيويورك، ١٩٦٥)، ص ٥١٠ (...).

* ـ يودّ أيمن حنّا حدّاد أن يُعْرب عن تقديره لجهود كمال أبو ديب في ميدان الترجمة. و«عقائدية» هي المرادف الذي صاغه هذا المترجمُ لكلمة ideology.

٢ ـ فينكلستين: **الحقيقة والخيال**...، ص ٨٨ ـ ٩٥.

** ـ راجع ص ٤١ من الآداب التي بين يديك. (المترجم)

مـأهولة بالسكّان من جـهـة، وبين وجـود السكّان الأصليين وجوداً فعلياً (رغم عدم أهليّتهم للتمتّع بالحقوق الإنسانية) من جهة ثانية. وذلك لأنّ السكّان الأصليين هؤلاء كانوا قد شُبِّهوا عملياً بالحياة الحيوانية الموجودة في المنطقة. فحين أُبيد آخرُ ذكَرٍ تيسمانيٍّ على يد المحتلّين الأوروبيين لدولةِ جزيرة أوستراليا تلك، ادّعتِ اللجنةُ الملَكيّة في تيسمانيا ـ وهي اللجنةُ المسؤولة عن تصنيف الحياة النباتية والحيوانية في المنطقة ـ حقَّها بالجثث[1]. ٢) بالرغم من أنّ «الغزو كان قد بُرِّرَ أساساً بادّعاءٍ مزدوجٍ مفاده أنّ الأرض فارغةٌ وأنّ السكان الأصليين ليسوا جديرين بالحقوق الإنسانية، فإنّه لم يعد من الممكن الدفاعُ عن هذه الحجة الأخيرة من الناحية الأخلاقية في النصف الثاني من القرن العشرين. ولهذا جاء التأكيدُ في الدعاوى الصهيونية الحديثة على أطروحة الأرض الفارغة [دون ربطها بدونيّة السكّان الأصليين] (راجع كتاب جون بيترز: **منذ زمانٍ سحيق**). والحق أنّ الاعتماد على هذا الادّعاء يشكّل اعترافاً ضمنياً بأنّ المشروع الصهيوني كان سيكون لاأخلاقياً لو كانت فلسطين مأهولةً أصلاً بالسكّان. ٣) إنّ التتابع الزمني للاقتباسات التي استَشْهَدنا بها أعلاه هو التالي: روزفلت ـ تشرشل ـ هتلر. وهكذا فإنّ هتلر، في ما يختصّ بالغزو، قد وقف على أكتافِ عملاقين سبقَاه!

الطرد: المرحلة الأولى من الغزو الصهيوني

يقول والتر لاكور إنّ «مأساة الصهيونية هي أنها ظهرتْ على المسرح العالمي حين لم يعد ثمة أماكنُ فارغةٌ على خارطة العالم». غير أنّ هذا ليس صحيحاً تماماً، بل إنّ المأساة ـ إن كانت هذه مأساة ـ هي أنه لم يعد مسموحاً في بدايات القرن العشرين خَلْقُ أماكن على خارطة العالم، وكفَّت الإبادةُ عن أن تكون خياراً أمام الغزو. ولهذا ثبَّتتِ الصهيونيةُ أنظارَها على أسلوب الطّرد، أو على نقل السكان population transfer بحسب التعبير الملطِّف المخفَّف في تلك الحقبة من التاريخ. ومن الجدير أن نستدعي إلى الأذهان أنّ الطرد، خلافاً للإبادة، كان ما يزال يُعتبر وسيلةً مشروعةً لحلّ النزاعات بين الأمم؛ وأشهرُ سابقةٍ معروفة في هذا الصدد هي التبادل السكّاني التركي ـ اليوناني. والواقع أنّ حلّ «المسألة اليهودية» في بولندا في نهايات الثلاثينات من هذا القرن، بترحيل اليهود البولنديين إلى جزيرة مدغشقر التي كانت تحت السيطرة الفرنسيّة، كان قد أولي تفكيراً جديّاً. ورغم أنّ اندلاع الحرب العالمية باغَتَ هذه الخطّة فإنّها حازتْ موافقة الحكومة الفرنسية الاشتراكية، بل موافقةَ قسمٍ كبير من الراي العام اليهودي الأوروبي. وأما بالنسبة إلى فلسطين، فإنّ حزب العمّال البريطاني لم يكن وحده مَنْ صادق على الاقتراح الصهيوني باقتلاع السكّان الفلسطينيين الأصليين، بل شاركه في ذلك [الفيلسوفُ الانكليزيُّ] برتراند راسِلْ. ولتحقيق خاتمةٍ موفّقة للطور الأوّل من الغزو الصهيوني، عمَدتِ الحركةُ الصهيونيةُ إلى تطبيق خيار الطرد خلال الحرب العربيّة الإسرائيلية عام ١٩٤٨[2].

إن الاعتقاد بأنّ أوسلو تُلزِم إسرائيل بمغادرة المناطق المحتلة عام ٦٧ يُفصح عن قصور أساسيّ في الإدراك

التطويق: المرحلة التالية من الغزو الصهيوني

باستيلاء الحركة الصهيونية أثناء حرب حزيران عام ١٩٦٧ على الضفة الغربية التي طالما طمعتْ بها، واجهتْ هذه الحركةُ المعضلة ذاتها التي سبق أن واجهتها في أوائل هذا القرن: وهي أنّها أرادت الأرضَ، لا السكان. غير أنّ الخيارات المتاحة لحلّ هذه المعضلة ضاقت إلى حدّ

---

١ ـ روبرت ترافِرْس: **التسيمانيون** (ملبورن، ١٩٦٣)، ص ٢٢٠.

٢ ـ والتر لاكور: **تاريخ الصهيونية** (نيويورك، ١٩٧٦)، ص ٥٩٧. وللاطّلاع على التزام الحركة الصهيونية بخيار «نقل السكّان» وبتطبيقه، راجعْ فينكلستين: **الحقيقة والخيال**... ص ١٦، ٥١ ـ ٨٧، ١٠٣ ـ ١٠٤. ولمزيد من المعلومات عن السابقة اليونانية ـ التركية وقرار حزب العمال البريطاني، راجع كتاب نور مصالحة: **طرد الفلسطينيين** (واشنطن، ١٩٩٢). وراجع براتراند راسِلْ: «دور الدولة اليهودية في المساعدة على إنشاء عالمٍ أفضل» (١٩٤٣)، وهو مقالٌ أعيد طبعُهُ في كتاب **الصهيونية** (١٩٨١) ص ١٢٨. واقرأْ عن «نقل» اليهود البولنديين كتابَ شاوول فريدْلانْدرْ: **ألمانيا النازية واليهود** (نيويورك، ١٩٩٧)، ص ٢١٩.

بعيدٍ: ذلك أنّ الطرد، لا الإبادة وحدها، قد كفا عن أن يكونا خياراً [مقبولاً]. فقد حظر القانون الدوليُّ الترحيلَ القسريَّ للسكّان، في أعقاب التجارب النازية الخاصة بالهندسة الديموغرافية. وكما كان متوقّعاً، راحت الحركةُ الصهيونيةُ تثبّت أنظارها على خيار التطويق. والحق أنّ خطة آلون، التي صاغها حزبُ العمل الإسرائيلي بُعَيْد حرب حزيران، طالبتْ بأن تحتفظ إسرائيلُ بما يقارب نصفَ مساحة الضفة الغربيّة، في حين تُمنَحُ المناطقُ «ذات الوجود السكّاني الغربي الكثيف» حكماً ذاتياً مصطنعاً. ولم تكن هذه الخطّةُ «تسويةً» بأيّ معنى من المعاني. بل إنّ استخطاطية <استراتيجيّة> حزب العمل التطويقية كانت أقصى ما يُمْكن إسرائيل أن تطمحَ إليه، هذا إذا نَحَّيْنا جانباً أنّ هذه الخطة لم تسمح للفلسطينيين بأيّ تقريرٍ لحقّ مصيرهم ذي معنًى.

ومع ذلك احتفظتْ إسرائيل بخطةِ آلون في مخزنٍ بارد ما يقرب من ثلاثين عاماً. فمن ناحية، لم تكن هناك ضرورةٌ ملحّةٌ [لتطبيق هذه الخطة]، إذ استطاعَتْ إسرائيل ـ بإنشائها شبكةً من المتعاونين الفلسطينيين ـ أن تُبقي على احتلالها دون أيّ كلفةٍ فعليّة، وفي هذا الوقت راح الرّاعي الأميركيُّ يَحْرِف كلَّ الضغوط الدوليّة على إسرائيل [للانسحاب من المناطق التي احتلّتها عام ٦٧...]. ومن ناحية ثانية لم يكن ثمة فلسطينيّون يقبلون بتلك الخطّة، إذ لم تكن هناك قيادةٌ فلسطينية ذاتُ صدقيّةٍ ترغب في أن تؤدّي دَوْرَ الزعيم القبلي بوتيلايزي Buthelezi [في جنوبيّ أفريقيا]. ولهذا نادتْ منظمةُ التحرير الفلسطينية، استجابةً لطموحاتِ أنصارها من الفلسطينيين، وانسجاماً مع الإجماع الدولي، بانسحابٍ إسرائيلي كامل من الضفة وغزّة وبحقوق كاملةٍ في تقرير مصير الفلسطينيين في هاتين المنطقتين، لا بمجرّد زخارفَ [خادعةٍ] من هذا التقرير.

بمقدور البانتوستانات أن تَسْتقلّ، ولكن المسألة بالنسبة إلى السكّان الأصليين ليست السيادة في حدّ ذاتها، بل العدالة

أوسلو: تطبيق خطة آلون

دفعتْ تطوّراتٌ جديدة في العقد الماضي إسرائيلَ إلى وضعِ خطةِ آلون موضعَ التنفيذ. فقد أُجبرتْ إسرائيل، رغم نجاحها في نهاية المطاف في حملتها من أجل سحق الانتفاضة، على دفع ثمن باهظٍ على المستويين المحلّي والعالمي. وكان واضحاً أنّ الوضع القائم قبل الانتفاضة الفلسطينية لم يكن قادراً على الاستمرار إلى ما لا نهاية. وعلى جانب آخر، دفعتْ سلسلةٌ من الأحداث ـ تدميرُ العراق في حرب الخليج، وزوالُ الكتلة السوفياتية، وتحالفُ [بعض] الأنظمة العربية علَناً مع الولايات المتحدة، وأقدارُ منظمة التحرير الشديدةُ الانحدار ـ بعرفاتَ إلى إعادة النظر في العرض الإسرائيلي القائم والقاضي بالانسحاب الجزئي من الضفة الغربية وبتحويل ما تبقى من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ٦٧ إلى محميّة pro-tectorate لها شبْهُ رئيس دولةٍ فلسطيني.

لقد دشّنتْ اتفاقيةُ أوسلو انتصارَ استخطاطية التطويق الإسرائيلي. وعلّق مؤخّراً الزعيمُ الحالي لحزب العمل، ايهود باراك، بالقول: «كان إسحاق رابين يفكّر بلغةِ خطةِ آلون إلى اليوم الذي ماتَ فيه». وإنّ الاعتقاد بأنّ أوسلو قد أشارت إلى التزام إسرائيل بمغادرة المناطقة المحتلة عام ٦٧ يُفصح عن قصورٍ أساسيّ في الإدراك. فإسرائيل لم تنسحب من أراض كانت قد احتلّتها إلاّ بسبب استخدام القوة استخداماً فعّالاً: فانسحابها من سيناء جاء في أثر العرض المصريّ المؤثّر في حرب اكتوبر ١٩٧٣؛ وانسحابها من لبنان عام ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ جاء في أثر العدد الكبير من الإصابات التي تكبّدها جيشُ الدفاع الإسرائيلي على يد مقاتلي حرب العصابات اللبنانيين. ولكنّ الفلسطينيين عشيّةَ أوسلو كانوا في وضع يائس من الانهزام والاندحار والخضوع. ومع أنّ ياسر عرفات ادّعى أنّه انتزع نصراً من فكّي الهزيمة، فإنه في الواقع أذْعَنَ للهزيمة ـ وإنْ لم يكن ذلك لنفسه، فللشعب الفلسطيني على أيّ حالٍ[1].

---

١ ـ **هارتس**، ٢٥ أيلول ١٩٩٦. وللاطّلاع على انسحاب إسرائيل من سيناء راجعْ كتاب فينكلستين: **الحقيقة والخيال**...، الفصل السادس. ولانسحابها من لبنان راجعْ كتاب أفراهام تامر: **جنديٌّ يبحث عن السلام** (نيويورك ١٩٨٨)، ص ١٥٧ ـ ١٥٨. وراجعْ أيضاً كتابَ فينكلستين: **صعود فلسطين وأفولُها**، ص ١٣٩، هامش رقم ١٥. والجدير ذكره أنّ إسرائيل انسحبتْ أيضاً من سيناء المحتلة عام ١٩٥٧ استجابةً لضغوط دولية ـ وأميركيةٍ خصوصاً.

سوف تتخلّى إسرائيل في نهاية المطاف عن السيطرة المباشرة على نصف الضفة الغربية ربّما، وستحتفظ بالقدس الموسّعة وبمصادر المياه الأساسية. وفي الوقت ذاته سيتمّ الإعدادُ لإدارةٍ [ذاتية] مشابهةٍ لإدارة البانتوستانات في المناطقة المشظّاة من «الوجود السكّاني العربي الكثيف». والأرجح أنّ البانتوستانات الفلسطينية، أسوةً بالبانتوستانات الجنوبأفريقية، ستُمنح الاستقلال بدولةٍ statehood في خاتمة المطاف. وهذه الحقيقةُ وحدها كافيةٌ للإيحاء بأنّ شعار «الاستقلالَ بدولةٍ مّا» شعارٌ عفا عليه الزّمن، بل هو في الواقع انحرافٌ خطير: إذ بمقدور البانتوستاتُ أيضاً أن تصبح دولةً مستقلّةً من الناحية القانونية، ولكنّ المسألة بالنسبة إلى السود في جنوبي أفريقيا لم تكن السيادة في حدّ ذاتها، بل العدالة. لقد اتّخذتْ جنوبُ أفريقيا البيضاء لنفسها كلّ ما يجدر الاحتفاظُ به، وكان كلّ ما ظَفَرتْ به البانتوستانات ـ بكلمات أحد النقّاد ـ هو الحقُّ في «ضبط أمن أنفسهم وفي إدارة فقْرهم». وهذا هو ما سيظفر به الفلسطينيون إذا منحتْ إسرائيل المناطقَ ذاتَ «الوجود السكّاني العربي الكثيف» استقلالها![1].

يعاني الفلسطينيون الاستشهاد، ولكنّ المتعاونين الفلسطينيين يتدافعون للحصول على أموال الرشوة

والحقّ أنّ الخطط تجري على قدم وساق لقيام مقاولين فلسطينيين وإسرائيليين باستغلالٍ مشتركٍ للعَمالة الفلسطينية الزهيدة للغاية في «مناطق صناعية» هي في الحقيقة نسخةٌ مُحَدَّثَة عن استخطاطية «نقاط النمو» growth points الجنوبأفريقية. إنّ المكاتبية <البيروقراطية> المنتفخة، التي تبلغ ما يقارب رُبْع الوظائف في الضفة الغربية وغزة، لهي في عبوديةٍ تامة لياسر عرفات. ولكي يستطيع عرفات أن يموّل هذه المكاتبيّة فإنّه قد غدا في عبوديةٍ تامةٍ للولايات المتحدة ولإسرائيل. وهكذا يرُخي عرفات كيسَ نقوده [المليء] بالأموالِ المسروقة من المنح الدولية ليضبطَ مسلكَ الفلسطينيين [أو ليخضعَهمْ لمشيئته]، في حين تَقْبض الولاياتُ المتحدة وإسرائيلُ على كيس النقود لتَضْبط مسلك عرفات. وهذا هو ما يسمّى في الأدبيات المختصّة بـ«جلب الديموقراطية إلى العالم الثالث»! وأما بالنسبة إلى أولئك الفلسطينيين الذين ينظرون إلى هذه الترتيبات بازدراء، فإنّ قوات عرفات الأمنية المتعدّدة ـ التي تتصرف هي أيضاً بأوامر من الولايات المتحدة وإسرائيل ـ لهي بالمرصاد. بل إنّ يد عرفات قد أصبحتْ أكثر حريةً من يد سلَفه الإسرائيلي في إرهاب الفلسطينيين وتعذيبهم، وذلك بعد أن رُفعتْ موخّراً القيودُ القليلةُ نفسها التي فَرَضَها الرأي العامُ العالمي؛ وإنّ هذه [الحريّة الإضافية] تطوُّرٌ ليس له إلا أن يستدعي ابتساماتِ المُحْسِنين إلى عرفات وإيماءاتِهم المُسْتَحْسِنة. والجدير تأكيدُهُ أنّ النوايا الشخصية في هذه المسائل لا تهمّ إلا بأقلّ القليل؛ فسواء أكان عرفات يصدر عن دوافع نبيلةٍ أم وضيعة فإنّه أضحى اليومَ أسيراً لترتيباتٍ مؤسساتيّة لا تترك له إلاّ هامشاً ضيّقاً جداً للمناورة: فإما أن يُلبّي أوامر الأسياد، أو يُتْرَكَ خارجاً في العراء. ولنتذكّرْ أنّ الزعيم القبلي بوتيلايزي بدأ هو الآخر قومياً مُتَّقِداً بالحماسة القومية، وأنّه تمتّع بدعم المؤتمر الوطني الأفريقي ANC بل وبدعم منظمة طلاب جنوبي أفريقيا SASO الأكثرَ قتاليةً [أو نضاليةً]!

آفاق «العملية السلمية»

كان الهدف الحقيقي من «العملية السلمية» هو وضع استخطاطية التطويق الإسرائيلية موضعَ التنفيذ. وقد احتاجتْ إسرائيلُ إلى متعاونين من السكّان الأصليين [الفلسطينيين] كي تجيز هذه المرحلة الأخيرة من الغزو إجازةً شرعيةً وكي تضبط الفلسطينيين. ومن هذه الناحية ينبغي أن نُقِرّ بأنّ «العملية السلمية» حَقّقتْ نجاحاً حتى الآن. صحيحٌ أنّ عرفات يَعْصى الأوامر أحياناً ـ أو يبدو وكأنّه يَعْصاها ـ غير أنّ ذلك كان أيضاً شأن قادةِ البانتوستانات؛ ذلك لأنّ المتعاونين أنفسهم عرضةٌ لمحاسبة أنصارهم إلى حدٍّ ما. ولئن نُظر إلى أولئك المتعاونين وكأنهم مجرّد منفّذين لأوامر الأسياد، فقدوا كلّ صدقيّتهم، وفقدوا بالتالي كلّ فائدةٍ يقدّمونها لأسيادهم. ولا شكّ أن عرفات يرغب حقّاً بأكثر مما

---

١ ـ للاطّلاع على السابقة الجنوبأفريقية راجعْ نورمان فينكلستين: «عملية السلام، الى أين»، في **مجلة اليسار الجديد**، تموز ـ آب ١٩٩٦، ص ١٣٨ ـ ١٥٠؛ والاقتباس موجود على ص ١٤٧.

تعرضه عليه إسرائيل، غير أنّ الجوهر الحقيقي للعملية الدينامية بين «السلطة الفلسطينية» وإسرائيل قد التُقِط مؤخّراً في تقريرٍ لصحيفة **هارتس** (٤ نيسان ١٩٩٧). فهذا التقرير يقول إنّ «الأموال الإسرائيلية هي دماءُ الحياة [أو قوام الحياة] للسلطة الفلسطينية». ويُرْدف التقرير:

إنّ القصة التالية ستكون برهاناً. ففي اليوم الذي تلا افتتاحَ نفقِ حائطِ المبكى، وفي غمرة المعركة بين جنود الجيش الإسرائيلي والشرطة الفلسطينية، كان يُعْقَد مؤتمرٌ علميّ في تل ابيب بمشاركة اريه زئيف Ar-yeh Zeif، وهو مديرُ الجمارك الإسرائيليّة والمسؤول عن تحويل الأموال إلى السلطة الفلسطينية. وقد نجح احدُ كبار مسؤولي السلطة الفلسطينية في الاتصال بزئيف على هاتفه الخلويّ، ولم يكن يريد الحديث عن النفق بل عمّا إذا كان بمقدور إسرائيل أن تحوّل المالَ إلى السلطة الفلسطينية قبل الميعاد بيومين. وأوضح المسؤول الفلسطيني أن الأمر يتعلّق بأسباب فنيّة، وبأمور تخصّ الأعياد بحسب التقويم الفلسطيني. ووافق زئيف على طلبه عن طيب خاطر.

إنّ الفلسطينيين يعانون الاستشهادَ، لكنّ الأمر مسألة عقد صفقات («بِزْنِسْ») كالمعتاد بالنسبة إلى المتعاونين الفلسطينيين مع إسرائيل الّذين يتدافعون بالمناكب للحصول على الأجر ويستميتون في الحصول على أموال الرشوة. وعلى الفساد المستوطِنِ في «السلطة الفلسطينية» أن يُفهَمَ في هذا السياق. فالفساد هو البَدَلُ الضمنيُّ tacit quid pro quo للتعاون مع الاحتلال. ومن المؤكد أنّ اسرائيل والولايات المتحدة لا تفضّلان الفساد؛ فالمال المخصّص لمعاهدة السلام يُبَدَّدُ بعد كل حساب. غير أنّ التعاون المتقشّف [المتنسّك] مع الاحتلال لَهُوَ، في عالم الواقع، إردافٌ خُلْفِيٌّ*. وليس باستطاعة المرء أن يتخيّل متعاونين دون فساد بأكثر من أن يتخيّل موبوتو دون قبّعته المصنوعة من جلد النّمر، أو أن يتخيّل ـ كما في الحالة التي نبحثها هنا ـ مدبِّرةَ منزلِ عرفات دون سروالها الضيّق المصنوع من جلد النّمر!

من المرجّح أن تنجح الاستخطاطيةُ الإسرائيليةُ في المستقبل المنظور. ولن يعوّقها سوى هبّةٍ شعبيةٍ عارمة، غير أنّ هذه ليست محتومةً. فمع هزيمة الانتفاضة، ومع خياناتِ قادةِ الشعب الفلسطيني وفسادهم وانتهازيتهم، ...تخلّى الفلسطينيون عن السياسة، وراحوا يَسْعَون إلى الخلاص الفردي في خضمّ التنازل [القيادي] عن حقوقهم الجماعية، ولسانُ حالِهم «اللّهم نفسي»!. ولكنْ مَنْ يستطيع أن يلوم هؤلاء الفلسطينيين؟

إنّ التجربة التاريخية توحي بأنّ جيلاً سيمضي قبل أن يتعافى الفلسطينيون من الهزيمة التي مُنوا بها في أوسلو. ومن هذه الناحية، فإنّ نمط السنوات العشرين المتكرّر من الهزيمة والمقاومة ذو دلالةٍ، إنْ لم يكن قانوناً حديدياً: وَعْد بلفور (١٩١٧) ـ الثورة العربية (١٩٣٦)؛ الطرد (١٩٤٨) ـ المقاومة التي أطلقتها منظمة التحرير الفلسطينية (١٩٦٨)؛ الاحتلال (١٩٦٧) ـ الانتفاضة (١٩٨٧).

ستودَع أوسلو في الهامش وستُنْبَذ بوصفها انحرافاً قذراً عن مسار السلام العادل والدائم

غير أنه من غير المرجّح، مع ذلك، أن تبقى اتفاقيةُ أوسلو مستقرّةً ثابتةً، في نهاية المطاف. فما هي إلاّ مسألةُ وقتٍ حتى يصبح السكّانُ بين البحر الأبيض المتوسط والأردن نِصْفُهُمْ يهوداً إسرائيليين ونِصْفُهُمْ الآخر عرباً فلسطينيين. وسيكونون أيضاً نِصْفُهُم أحراراً، ونِصْفُهُم الآخر عبيداً. ولقد فَهِم لينكولن منذ أمدٍ بعيد أن وضعاً كهذا لا يمكن أن يستمرّ إلى الأبد. والحقّ أنّ مصائر المضطهِدِ والمضطهَد في فلسطين/إسرائيل، كما كان الأمرُ في الجنوب الأميركي وجنوبي أفريقيا، منجدلةٌ منضفرةٌ بشكل يتعذّرُ تغييرُه [أو نقضُه]. ويُرَجَّح أن يكون المستقبلُ، وإن يكن بعيداً جداً، مستقبلاً يتعايشُ فيه الفلسطينيون العربُ واليهودُ الإسرائيليون متمتعين بحقوقٍ جماعيةٍ وفرديةٍ متبادلة ضمن كينونة متكاملة unitary entity. وأما اتفاقية أوسلو فستُودَعُ في الهامش، ولا شكّ أنها ستُنبذُ يوماً مّا بوصفها انحرافاً قذراً عن مسار ذلك السلام العادل والدائم. وفي الوقت الحالي ثمة الكثير ممّا يمكن عملُهُ لتحسين حياة الفلسطينيين اليومية. ولعلّ النضال من أجل تأمين حقوقهم الإنسانية الأساسية ـ كإلغاء التعذيب مثلاً ـ هو مكانٌ جيّد للبدء. والحق أنّ انتهاكات حقوق الإنسان لا تنفصل عن الاحتلال. فاقْضِ على أحد الشرّيْن تقضِ على الآخر!

نيويورك ١٩٩٧

---

* ـ إزاء oxymoron، وهو اجتماعُ لَفْظتيْن متناقضتيْن، نحو: «متشائم مَرِح» (قاموس **المورد**).